مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 6، العدد 24 (خريف 1995)، ص 217

مقابلة مع عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية سابقاً، محمود درويش، بشأن زيارته لغزة ونظرته إلى السلام الفلسطيني ـ الإسرائيلي الراهن.* [مقتطفات]

■ [ردّاً على سؤال عن مشاعره وموقفه تجاه ما يجري في غزة حالياً، وتحفظه من التعبير عنهما، أجاب محمود درويش]

□ [....] أحياناً أبذل جهوداً نفسية كبيرة للجم اندفاعاتي اللغوية والنفسية لكي أحمي عباراتي من الكلمات. لقد جئت إلى هنا خالياً تماماً من الأوهام، ولكني أشعر أيضاً بأن عليّ أن أراعي حساسية الوضع وحرجه، ليس بالمعنى السياسي فقط، وإنما بالمعنى النفسي أيضاً. لا أستطيع أن ألغي من اعتباراتي احتفال أهل غزة بوضعهم الجديد. ولديّ شعور أننا نحن القادمين من الخارج لا نقدر المعنى الذي ينطوي عليه هذا الاحتفال الغزاوي، لأننا لم نخضع للمقارنة التي يعقدونها بين ما كانوا عليه وما أصبحوا عليه. وبالتالي نحن لا نعرف فرحنا بأمسيات البحر. ولا نعرف فرح الناس بحق التجول الحر في أي ساعة من ساعات الليل. لقد استعاد أهل غزة البحر واستعادوا الليل. استعادوا حقهم في أن يقيموا أعراسهم: ضجيج أعراسهم الذي كان خافتاً في ما مضى بتصادمه مع جنازة على مقربة. باختصار نحن لم نخضع لهذه التجربة الخاصة. وهذا سبب كاف لكي لا نستطيع تجاهل هذا الفرح، ولكن في الوقت نفسه، لا أستطيع أن أجعله عاملاً أساسياً وحاسماً في نظرتي للتجربة.

أما النقطة الثانية فهي أن التجربة نفسها ما زالت هشة جداً، وبالتالي فإن النقد يجد نفسه مكبلاً بالإحساس بالمسؤولية لأنه يجب علينا ألاّ نحبط كل شيء. وثمة أوقات لا يكون الانتقال من تحت الصفر إلى الصفر إنجازاً بالمقاييس الفلسفية. بيد أنه توجد أوقات أُخرى نكون محكومين فيها بهذه النسبية، لا يمكن أن نتجاهل الوصول إلى حالة الصفر إذا كان الأمر يتعلق بتأسيس حياة طبيعية يعتبرها بعض الناس أو مجموعة من الناس إنجازاً. لا نستطيع أن نتجاهل ذلك. ولكن دعني أقُل إن ضغط العامل الإسرائيلي هو أُس الموضوع برمته. وهو ما يحتاج إلى الفضح والتركيز. وهنا يجب أن يرفع الإعلام الفلسطيني والعربي والعالمي صوته عالياً إزاء حقيقة أن غزة معتقل حقيقي، الأمر الذي يطرح سؤالاً كبيراً حول ماهية ونوعية هذا السلام القائم بين السجان والسجناء. وحيث يقوم السجناء للمرة الأولى، بتحمل تكاليف سجنهم. إن هذه الصورة الواضحة بالنسبة إلى القادم من الخارج هي ما يهزني.

ونقطة ثالثة، لم أكن أعرف أن الاستيطان الإسرائيلي في قطاع غزة بهذا الحجم وبهذا الحضور الاستفزازي. الاستيطان موجود على الطرق الرئيسية وفي وسع المستوطنين أن يقطعوا الاتصال بين مدن قطاع غزة وقراها ومخيماتها. هذا المشهد يثقل عليّ انطباعاتي وتعبيري عن الانطباعات بقدر من الحذر الشديد، لا لأنني أريد أن أساير أحداً، ولكن لأنني أريد أن آخذ مشاعر الناس في الاعتبار. كما أن للصدمة دوراً أيضاً في تحديد درجة حرارة اللغة، ولا أخفي أنني أشعر بالصدمة. صحيح أن العلاقة بين الصورة والواقع ليست متنافرة، إذ إن هناك تقارباً بين الصورة التي شكلتها عن الوضع وبين الواقع نفسه، ولكني أشعر بالصدمة ولا أخفي إحساساً ما ببعض الإحباط إزاء ما يجري: من زر الكهرباء إلى حنفية المياه إلى حركة المرور حيث كل شيء مثقل ويذكّر بالشروط الإسرائيلية والاحتلال الإسرائيلي. وما يدهشني أكثر هو خجل الإعلام الفلسطيني. هذه اللياقة المبالغ فيها من جانب الإعلام الفلسطيني تجاه هيمنة الاحتلال الإسرائيلي. هناك لياقة مبالغ فيها تجاه الشكوى، في الوقت الذي يجب علينا فيه أن نشكو ونقول إن غزة عبارة عن سجن.

[....] ولكن هناك ما يشجعني لأنه توجد إرادة قوية عند الناس في بناء وطن. وهذه الإرادة القوية تجد نفسها قادرة على تأجيل النظر في مشاكل آنية. هناك استخفاف ما بخطر الاستيطان. يقولون كله سينتهي ويزول. وهذا الاستخفاف قد يمكن تفسيره على أنه التعبير عن هذه الرغبة في التحدي وقوة الإرادة.

* "الحياة" (لندن)، 1995/9/27.

■ وافقت إسرائيل أخيراً على عودتك، وكان واضحاً منذ البداية أن زيارتك لغزة تحولت قضية سياسية ومفاوضات. وهي استمرت حتى بعد دخولك القطاع؛ إذ لم يسمحوا لك بالوصول إلى الضفة الغربية والجليل مسقط رأسك. بماذا تفسر تعاملهم معك على هذا النحو؟

□ هذه مناسبة أنتهزها كي أوضح حدود وجودي هنا ومعانيه. كان هناك التباس في وصف دخولي إلى هذه الأرض. وبودي أن أوضح أنني كنت راغباً منذ البداية في إحاطة دخولي إلى غزة بأقصى درجات الكتمان وإخفاء أي مظهر من مظاهر الفرح، لأنني ببساطة لا أستطيع أن أسمي هذا الدخول عودة، ولا أستطيع في الوقت نفسه أن أسميه زيارة. هناك حالة ملتبسة بين الزيارة والحق في الإقامة على جزء من وطنك. ولكن عودتي الحقيقية لن تتحقق إلاّ عندما يتحقق حقي في العودة إلى الجليل. ثمة وطن واحد لكل الفلسطينيين هو فلسطين. بيد أن لكل فرد من الفلسطينيين وطنه الخاص. وأنا وطني الخاص هو الجليل. [....] فلسطين الوطن هي الصورة المتكاملة. ومع ذلك فإن هذا لا ينفي ضرورة الاحتفاء الوطني بتحرر قطعة من الوطن ولو كانت صغيرة وفقيرة إلى هذا الحد. [وبالنسبة إلى السؤال بالتحديد] [....] لست مخوّلاً ولا قادراً على شرح الدوافع واعتبارات السياسة العليا لإسرائيل في هذا المجال. وما سمعته الآن (قبل يوم من مغادرة درويش غزة) هو أنه مسموح لي بأن أزور أريحا فقط من الضفة الغربية.

[.....]

■ ألا يبدو لك أن تصرفهم معك ينطوي على قدر من المفارقة. إذ بينما يقولون بالسلام والتطبيع الثقافي، فإنهم يأخذون موقفاً أقل ما يقال فيه إنه عدائي وغير أخلاقي، ضد أحد أهم الرموز الثقافية للفلسطينيين؟

□ لا... لا أعتقد أن الإسرائيليين قد دخلوا على مستوى الوعي إلى مرحلة إدراك معنى السلام. ما يحدث أنهم يريدون من الناحية العملية تسوية على قوامهم وعلى قوام متطلبات أمنهم ومشاريعهم الاقتصادية. أمّا السؤال الثقافي الذي هو الضمان الحقيقي للسلام، فلم يقتربوا منه حتى الآن، إلاّ في ما يخص تكريس روايتهم وحبكتهم التاريخية لنا ولهم ولتاريخ هذه الأرض. عدا ذلك هم لم يدخلوا في أي جدول أعمال حقيقي من أجل السلام. ومعاداتهم لي تصلح لأن تكون مؤشراً سلبياً، إلى كونهم لا يريدون أن يقيموا حواراً متكافئاً. إن كل من يعترض على حبكتهم التاريخية ويشتغل على كتابة الرواية الأُخرى لهذا التاريخ يجب أن يعاقب. هذا هو الموقف. لا يريدون سلاماً أو حواراً بين روايتين لأنهم لو أرادوا عكس ذلك، أي سلاماً حقيقياً، لطوروا مساحة الحوار بين الروايتين لأنه عبر هذا الخيار فقط يمكن إحالة الأجوبة الكبرى إلى التاريخ... التاريخ الذي قد يكون ساخراً، وقد يكون منصفاً، أو عادلاً، أو ظالماً. ولأن الحوار بين الروايتين فقط، يمكن أن يشكل الخصوبة الفكرية العميقة للطرفين، وقبل ذلك يحفظ للسيكولوجيا الإسرائيلية القدرة على أن تفتح إناءها على الآخر... الآخر الذي يجب أن يشارك في تشكيل الإناء.

إن خطابي الشعري واضح وملتبس لكنه يحمل سيرة داود وسيرة كنعان. وفيه مساحة لتاريخ اليهود على هذه الأرض وكل الشعوب التي عاشت أو مرت من هنا وتركت بصمات من ثقافتها وحضارتها. إذن أنا أعبر عن حصيلة كل الثقافات والحضارات والأعراق والأديان التي مرت على فلسطين بما فيها الخطاب اليهودي، فهل عليّ أن أخرج من هذا التكوين، وأن أبدأ تاريخ فلسطين من يوم 13 أيلول (سبتمبر) 1993؟ هل عليّ أن أقبل القطيعة القصوى في تاريخ علاقة فلسطين بشعبها وحاضرها وماضيها؟ هل عليّ أن أتحرر من جدلية الماضي والحاضر؟ يبدو أن هذا ما يطرحه علينا الإسرائيليون ويريدون أن يسيّسونا به، لكي يفرغوا خطابنا السياسي من أي مكونات أو أبعاد ثقافية لكي نقبل بروايتهم لنا، ولكي نبدأ حياتنا وتاريخنا من لحظة 13 أيلول [سبتمبر] 1993.

إذن شروط التطبيع الحقيقية المرتبطة بالسلام الحقيقي وبالمساواة على أساس حق تقرير المصير للفلسطينيين ليست قائمة، لأن هذا لا يعتمد فقط على التوازن بين الطرفين، إنما أيضاً على قبول إسرائيل مبدأ التخاطب مع الذاكرة الجماعية للشعب الفلسطيني... شعب ليس له حق الوجود الشرعي في الحاضر، إنما كان له هذا الحق في الماضي، لأننا الآن نحاسب على أساس شرعية حق وجودنا في الماضي. إن هذه القضايا هي التي يمكن أن تجعل سؤال التطبيع حقيقياً. لكن هذه الأسئلة كلها مستبعدة كشروط للاقتراب من سؤال التطبيع.

من جهة أُخرى، يبدو لي أحياناً كما لو أن الإسرائيليين يريدون أن يقيموا سلاماً مع الأفراد، أي كما يطالبون السلطة الفلسطينية بتأمين الأمن للأفراد، يريدون أن يفاوضوا الفلسطينيين فرداً فرداً. إذ ما معنى أن

تصلني من الإسرائيليين إشارات بصورة رسمية، أنه كشرط لحصولي على تصريح بزيارة الجليل، عليّ أن أعلن موقفاً مضاداً لموقفي من اتفاق أوسلو؟ هناك ابتزاز سياسي مباشر لتفسير حقنا بالاختلاف. الآن أنا عليّ أن أصرح تصريحاً أعلن فيه تغيير موقفي من اتفاق أوسلو. وهذه مناسبة أيضاً كي أعيد توضيح موقفي من اتفاق أوسلو. فقد كنت من أوائل من قرأ هذا الاتفاق قراءة نقدية حتى قبل إعلانه ونشره على الملأ. ولم يكن في وسعي أن أقرأه قراءة أُخرى لأن أي قراءة منصفة لهذا الاتفاق ستخرج بنقد شديد له، بتحفظات عليه، وذلك من دون أن ندخل الاعتبارات التكتيكية للسلطة السياسية في هذه القراءة. إذ كإنسان أشتغل على حقل ثقافي ومعرفي آخر، لا أستطيع أن أقبل هذا الاتفاق. وحتى دعني أقُل إن أي مثقف إسرائيلي جاد لا يستطيع أن يقبله، لذات السبب، أي لأنه لا يعترف بالشعب الفلسطيني كشعب له حق تقرير المصير، ولا يعترف بأن الوجود الإسرائيلي على أرض فلسطين هو وجود احتلالي. كما لا يسمح للفلسطينيين بأن يديروا مصير حياتهم بحد أدنى من الحرية. إذن أي مثقف في العالم يقرأ هذا الاتفاق لا يمكن أن يقبله كنصّ عادل، كنص يصلح لوضع أساس متين لسلام بين شعبين متحاربين. وأنا عندما أقرأ النص هذه القراءة فإنني أفعل ذلك من منظور الحرص على الوصول إلى سلام حقيقي، وليس الوصول إلى هدنة معبأة بكل أسباب الحروب المقبلة. إذا استمرت هذه العلاقة بين سيد وعبد، بين محتل وواقع تحت الاحتلال، بين حي وميت، فإن هذا ليس سلاماً، لا لنا ولا لهم. ومشكلة الإسرائيليين أنهم حتى الآن لا يستطيعون أن يقيموا حواراً مع الأحياء. يريدون أن يقيموا حواراً مع خطاب مات. أن تموت فيك بواعث الحياة ومظاهرها من أجل أن يصافحوك ويقيموا سلاماً معك.

ومع ذلك يجب القول إن هذا النص الذي تحول إلى واقع، يفرض علينا التعامل مع هذا الواقع. لأن عكس ذلك هو الهروب من المشاركة في عملية بناء شيء ما، وأن هذا هو مفهومي للفصل بين النص والواقع. الواقع ليس نصّاً، لأنه مفتوح على إمكانات تطور وتراجع، كما أن هناك أحياناً شروطاً وأشياء في عمل الواقع، تنفصل عن النصوص.

[.....]

■ **[هل] يمكن القول إن المنفى لم يفقد أهميته أو دوره التاريخي حتى بالنسبة إلى محمود درويش؟**

□ هذا من أخطر الأسئلة الثقافية التي ستطرح على جدول أعمال الروح الفلسطينية. المنفى لم ينته لأن الشعب الفلسطيني المنفي لم يعد إلى بلاده. لقد عاد أفراد وكانوا بالأساس مرتبطين بالسلطة. يعني عادت السلطة وعاد المقربون منها. ولكن عندما نتحدث عن العودة يجب أن نكون حذرين كي لا نجرح مشاعر الفلسطينيين في الخارج. لأن الكلام عن عودة بهذا الإفراط بالتفاؤل قد يشعر الفلسطينيين في الخارج بأنهم دفعوا للنسيان. إذن المنفى الذي أعنيه هنا هو ما ليس وطناً، وغالبية الشعب الفلسطيني لا تزال هناك خارج الوطن، ما زالوا للأسف ينتظرون دورهم في التفاوض وفي الرجوع، ولم يحزموا حقائبهم بعد.

[.....]

■ **وإذن كيف وجدت غزة؟**

□ وصفت غزة في اليوم الأول من زيارتي لها، بأنها مدينة البؤس والبأس. أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية صعبة جداً. والمدينة تحتاج إلى إسهامات كريمة جداً من دول العالم والدول العربية لكي تتحول إلى ما يؤهلها، وهي مؤهلة فعلاً كموقع جغرافي، إلى أن تكون إحدى المدن الجميلة على شاطىء البحر المتوسط. هناك مقومات وشروط متوفرة لتصبح غزة واحدة من أجمل المدن على هذا الشاطىء. ولكن هذا يحتاج إلى دعم وجهد. لقد أحببت الناس في هذه المدينة الذين هم من أصلب الناس وأطيبهم. ووجدت الشعب الغزي شعباً حيوياً وديناميكياً ونشيطاً ومحصناً ضد الهزائم، وقادراً على التكيف مع شروط الحياة الصعبة لكي يذللها، وهذا هو الأثر الأكبر الذي تركته غزة في نفسي. قدرتهم (أهل غزة) على استقبال وعد حياتهم بثقة وإيمان عاليين. ولديهم الإيمان بقدرتهم على تحدي ظروفهم الخارجية والداخلية، وأن يذللوا عقبة السؤال الاجتماعي الذي يعني الخروج من الحجاب. وحق المرأة في المشاركة في الحياة بدأ يأخذ خطى واضحة جداً. فإذن هم يديرون سؤالاً وطنياً وسؤالاً اجتماعياً. ولهذا السبب فإن غزة تبعث على التفاؤل. ولكن يجب أن تحصل على ما تستحقه، ليس فقط تعويضاً على ما قدمته في الماضي، إنما تشجيعاً لها على ما تستحقه للمستقبل.

■ **رأيت عرفات في بيروت وتونس ولكنك رأيته الآن للمرة الأولى في غزة فكيف وجدته؟**

□ أُصلّي مع أبناء الشعب الفلسطيني من أجل أن يلهمه المزيد من الإرادة والقدرة على التحمل. لقد كان قائداً للحلم، والآن هو قائد الواقع، ومشاغل الواقع أو ما نسميه بالإسلام الجهاد الأكبر هي أكبر من مشاغل الحلم. وجدت الإنسان في عرفات أهدأ لأن أعباءه ربما أكبر لكنه مصمم على أن يواصل طريقه ويأخذ من مخالب الصقر ما يستطيع أن يأخذه من تراب وقمح. هو يقف أمام خصم غير كريم، وغير متسامح، وغير ناضج بما يكفي لتعايش حقيقي. وهو يواجه مفاوضات شاقة مع الخصم وشروطاً باهظة، يواجه أيضاً متطلبات البناء الداخلي. وإذن هو يحمل على كتفيه صليباً ثقيلاً. ويحتاج إلى قدرات غير عادية من أجل أن يرسي دعائم الاستقلال الفلسطيني.

■ **من بيروت إلى تونس، كنا دائماً نشكو من العلاقة مع السلطة. هل وجدت أن الأدباء والمثقفين مهابون ومحترمون في غزة؟**

□ الشيء الذي أريد أن أقوله للسلطة الفلسطينية إن عليها أن تحترم أكثر حرية المثقفين في الاختلاف معها. تباهينا كثيراً في السابق بالديمقراطية والتعددية. ولكن آن الأوان كي نبرهن الآن على اختيارنا هذا. إذ على السلطة أن تكون أكثر تفهماً للديمقراطية. وفي هذا السياق أُعلن احتجاجي العالي، ومناشدتي للإخوة في السلطة أن يكفوا عن ملاحقة الصحافيين وإغلاق الصحف، وأن يتسع صدرهم لكل نقد مهما كان قاسياً. لأنه من دون ذلك سنؤسس صورة بوليسية لنظامنا الذي نعد شعبنا أن يكون تعددياً وديمقراطياً. هذا الموضوع يجب أن يقال بصوت عال: على سلطتنا الجنينية والوليدة أن تطبق وعدها الديمقراطي للشعب.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx